

النتاج الفكري الإصلاحى وتأصيل الثقافة الوطنية في الجزائر شعر أحمد سحنون أنموذجاً

The Reform Thought Product and the Rooting of the National Culture
in Algeria - poem of Ahmed Sahnoun as a case study

د. سمير جريدي

جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريج (الجزائر)

Samir.djeridi@Univ-bba.dz

تاريخ القبول: 2022/09/30

تاريخ الإرسال: 2022/09/03

ملخص:

يتناول البحث الفكر الإصلاحى فى شعر أحمد سحنون؛ إذ عرّفنا بالشاعر تعريفا موجزا متحدثين عن مختلف جوانب شخصيته وآثاره، ومختلف نشاطاته. ثم قمنا بالحديث عن الحالة الثقافية فى الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسى، وأثناء ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتطرقنا إلى جهوده الإصلاحية من خلال شعره، والتي تمثلت فى: الدفاع عن اللغة العربية والإسلام، الاعتزاز بالشخصيات الإصلاحية الجزائرية، نشر الأخلاق الإسلامية استحضار مكونات الشخصية الجزائرية عبر التاريخ. مبرزين كيفية إسهام تلك الجهود فى الحفاظ على المقومات الثقافية للشخصية الوطنية الجزائرية، لنخلص إلى مختلف النتائج فى الخاتمة.

الكلمات المفتاحية: المقومات الثقافية، الهوية الوطنية الجزائرية، الشعر، أحمد سحنون.

Abstract:

The intervention deals with the reform thought in the poetry of Ahmed Sahnoun, where we described the poet briefly talking about his different personality aspects and his various activities. Then, we talked about the Algerian cultural conditions during the French colonial period and during the appearance of the Algerian Muslim scholars association. We referred to his reform efforts through poetry manifested in his defense to Islam and Arabic, treasuring the Algerian reform personalities as well as evoking the components of the Algerian personality throughout history showing how that efforts participated in the preservation of the cultural aspects of the Algerian cultural personality ending with different results in the conclusion.

keywords: the cultural elements, the Algerian national identity, poetry, Ahmed Sahnoun.

مقدمة:

عرف عن الاستعمار منذ الأزل أنه يعتمد إلى اتباع أساليب ومخططات شيطانية ظالمة كل هذا الأجل البقاء في البلاد التي احتلها، فيضمن بقاءها تحت سيطرته؛ ينهب خيراتها وثرواتها ويستعبد أبناءها ويستغلهم أبشع استغلال.

ولم يحذ الاستعمار الفرنسي البغيض عن هذا النهج عندما احتل الجزائر بقوة الحديد والنار، ومكث فيها 132 سنة، إذ لم يكتف بالاستيلاء على ممتلكات الجزائريين من الأراضي الخصبة وغيرها، بل عمد إلى نوع آخر من الأساليب التي ظن أنها ستخلده في الجزائر إلى الأبد، وهي محاربة مكونات الشخصية الوطنية الجزائرية من لغة ودين وهوية بإفساد اعتقادهم تجاهها، كل هذا حتى يضمن إخضاع الجزائريين له، وقد كانت له من الوسائل ما حقق بها بعضاً من أهدافه ولو إلى حين.

لكن بالمقابل لم يستسلم الشعب الجزائري ولم يستكن أو يرضى بما كان يقوم به الاستعمار، بل قاوم ذلك مقاومة شديدة، ومن هؤلاء نذكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال أعلامها كالشيخ عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، والعربي التبسي ومبارك الميلي، ومحمد العيد آل خليفة، وإبراهيم بيوض، وأحمد سحنون الذي اخترناه موضوعاً لبحثنا الموسوم بـ: «النتاج الفكري الإصلاحي وتأصيل الثقافة الوطنية في الجزائر؛ شعر أحمد سحنون أنموذجاً».

وقد أردنا من وراء إنجاز هذا البحث الإسهام في التعريف بالشاعر، كما أننا لا نعرف أنّ هناك عملاً قد تناول الشاعر من الناحية التي نتناوله منها، وبذلك سنسعى إلى الإسهام في إثراء الدراسات التي تتناول النتاج الفكري الإصلاحي في الأدب الجزائري الحديث ودورها في الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية.

فمن هو أحمد سحنون؟ وما هي حالة الثقافة الوطنية في الجزائر بعد الاحتلال وقبيل ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟ وما طبيعة النتاج الفكري الإصلاحي في شعر أحمد سحنون؟ وكيف أسهم في الحفاظ على الثقافة الوطنية وتأصيلها؟.

1- التعريف بأحمد سحنون:

أحمد سحنون شخصيه جزائرية متعددة الجوانب والاتجاهات؛ فهو شاعر وكاتب وداعية وخطيب مفوه، وصحافي ومُربِّ، وكل هذا سيتضح من خلال مختلف النشاطات التي قام بها والمؤلفات التي ألّفها والتي سنذكرها لاحقاً.

ولد الشيخ أحمد سحنون سنة 1906م أو 1907م بقرية (ليشانة) من الزّاب الغربي⁽¹⁾ ولاية بسكرة حالياً. تعلم على يد والده وشيوخ عصره، خاصة الشيخ محمد خير الدين⁽²⁾ والشيخ محمد الدّراجي، والشيخ عبد الله بن مبروك⁽³⁾، فتلقّى مبادئ اللغة العربية والشرعية الإسلامية، وقد حفظ القرآن الكريم في سن لم تتجاوز الثانية عشرة سنة⁽⁴⁾.

ولم يكتف الشيخ أحمد سحنون بما درس على يد والده ومعلّميه، بل «كوّن نفسه بالعصامية»⁽⁵⁾، إذ «انقطع للمطالعة حتى نبغ في علوم العربية والشرعية»⁽⁶⁾.

وفي سنة 1936م التقى بالشيخ عبد الحميد بن باديس، وكان هذا اللقاء نقطة تحول كبرى في حياته؛ إذ انضم الى جمعية علماء المسلمين الجزائريين، وأصبح أحد أعضائها الفاعلين⁽⁷⁾، وفي سنة 1947م اشترك في المجلس الإداري للجمعية وقام بكتابة نشيدها⁽⁸⁾.

وأما مختلف نشاطاته، فيمكننا الحديث عنها في الجوانب الآتية:

أ- الصحافة:

كان الشيخ سحنون ينشر في مختلف الصحف العربية الجزائرية، وبخاصة الشهاب للشيخ عبد الحميد بن باديس، والبصائر في سلسلتها الأولى والثانية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي كان عضواً في لجنّتها⁽⁹⁾، والعائد إلى أشعاره ومقالاته التي جمعت لاحقاً يجد أنها قد نشرت في أغلبها في الجريدتين السابقتين، هذا إضافة إلى جريدة النّجاح⁽¹⁰⁾.

ب- التعليم:

عينته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين معلّماً في مدرسة التهذيب الحرّة في بولوغين ثم أصبح مديراً لها بعد عام واحد⁽¹¹⁾، ويبدو أنّ الشيخ أحمد سحنون لم يمارس كثيراً مهنة التعليم في المدارس.

ج - الإمامة:

اشتغل أحمد سحنون بالإمامة في مختلف المساجد، وكان ذلك قبل الاستقلال وبعده فقد كان إماماً لمسجد الأمة ببولوغين يؤم الجموع الغفيرة من الناس، و«كان يحث الشباب على الاعتزاز بماضيهم والتمسك بالحرية والسعي نحو الانعتاق من نير الاستعمار»⁽¹²⁾، وبعد الاستقلال أعيد تعيينه إماماً خطيباً بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة⁽¹³⁾، وقد شهد له بقوة خطابه وبلاغته وفصاحته⁽¹⁴⁾.

د - الجهاد:

اقتزن اسم الشيخ أحمد سحنون بالشعر والعمل الدعوي أكثر، لكنه كان مجاهداً كذلك، إذ كَوّن «تنظيماً فدائياً سرّياً انطلافاً من مسجد الأمة عام 1953م، وبعد اندلاع الثورة لم يتردد في مساندتها ممّا أدى إلى سجنه عام 1956م... حكم عليه بالإعدام ثم أطلق سراحه بعد ثلاث سنوات لأسباب صحية، فقام المجاهدون بتفريجه إلى منطقة باتنة بالشرق الجزائري ثم إلى مدينة سطيف ليواصل عمله وجهاده بين أفراد شعبه»⁽¹⁵⁾. والواقع أنّ جهاد أحمد سحنون لم يقتصر على المعنى الضيق لكلمة جهاد (الانضمام للثورة التحريرية)، وإنما كلّ أعماله تُعدّ جهاداً في سبيل الله والدين والوطن.

هـ - الدعوة:

واصل الشيخ سحنون عمله الدعوي بعد الاستقلال، وكان ذلك في المساجد، وفي إطار المجلس الإسلامي الأعلى ورابطة الدعوة الإسلامية «وهي إطار دعوي يجمع كافة أطراف الحركة الإسلامية لتوجيه العمل الدعوي وتوجيه جهود العاملين بعد توحيدها وتنسيقها لاجتناب التناحر والشقاق داخل صفوف الحركة الإسلامية، كان ذلك سنة 1989م وقد كانت محاولة رائدة لو كتب لها الله النجاح والاستمرار»⁽¹⁶⁾، كما ترأس تلك الرابطة⁽¹⁷⁾. وقد كان لهذه الجهود الدعوية الأثر الواضح في التقريب والتوحيد بين مختلف التيارات الإسلامية في الجزائر بعد الاستقلال وقبيل التعددية السياسية في بداية التسعينيات.

لقد برز الشيخ ووفق في مجال الدعوة الإسلامية فقد عرف عنه «تمثل قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل

عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين»⁽¹⁸⁾، حتى استطاع بمنهجه أن يصبح منبراً للتعقل والحكمة ومرجعاً لوحدة الشعب الجزائري والثقافة حول ثوابته»⁽¹⁹⁾.

وقد أبرز أحمد سحنون منهجه في الدعوة قائلاً: «فليست الدعوة إلى الله - إذن - كلاماً مجرداً عادياً، يستطيع أن يملأ به شذقيه كل من لا حظ له من دين أو خلق، ولا خلاق له من إيمان أو استقامة، إنما هي كفاح مرير ينبغي أن لا يخوض غماره إلا من تسليح له بسعة الصدر ولين القول واستقامة السيرة وبلاغة المنطق وقوة الحجة»⁽²⁰⁾.

وهذه الميزات -حقاً- إنما تمثل الشروط الأساسية لنجاح العمل الدعوي التي كان الشيخ يحاول تمثيلها والالتزام بها - قدر المستطاع - لنجاح دعوته الإسلامية.

و- وفاته:

توفي الشيخ أحمد سحنون رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، خلال شهر ديسمبر 2003م.

ي- آثاره:

تراوحت آثاره بين الشعر والنثر، فقد ترك:

أ- ديوانين شعريين،

ب- كتاب "دراسات وتوجيهات إسلامية"، وهو في الأصل مجموعة من المقالات الدينية والاجتماعية، التي نشرها في جريدة البصائر الجزائرية.

2- الحالة الثقافية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي وأثناء ظهور (ج م ج):

يقتضي العقل والمنطق أثناء الحديث عن النتاج الفكري الإصلاحي في الجزائر، التطرق إلى الحالة الثقافية في الجزائر قبل بداية الفكر الإصلاحي، فظهور الإصلاح معنى ذلك أن هناك فساداً أو إفساداً، جاء الإصلاح لإزالته.

لذلك نتحدث عن عنصرين من الأوضاع الثقافية هما: اللغة العربية والدين الإسلامي بعدهما المقومين الأساسيين للشخصية والثقافة الجزائرية، وقد استندت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأحمد سحنون في فكره الإصلاحي.

لما دخل الاستعمار أرض الجزائر حارب الدين الإسلامي واللغة العربية منذ البداية ف «يوم أطاحت قوة البطش بالإسلام، حاولت أن تستبد له بإسلام تكيّفهُ على حسب أهوائها، فأنشأت له معاهد، وبيّنت له برامج، وقيّضت له بعض (الزوايا والطرق) تخدر الشعب بطقوس وأضاليل، وهي بدورها مخدرة يد المستعمر»⁽²¹⁾. «ويمكن القول أنّ مرحلة الهدم لجميع المؤسسات التعليمية والثقافة العربية، قد استمر منذ بداية الاحتلال حتى نهاية القرن التاسع عشر، ومع مطلع القرن العشرين»⁽²²⁾.

وإذا أردنا توسعا في الحديث عن إجراءات المستعمر لمحاربة الدين الإسلامي واللغة العربية، ذكرنا بعضا منها: «لقد عمد الاستعمار إلى أكثر من وسيلة لمحاربة الدين الإسلامي فحارب اللغة باعتبارها حاملة الدين ولغة القرآن، والحافضة للشخصية الجزائرية من الذوبان، ومنع التعليم العربي، وتدخل في تعيين أئمة المساجد بحيث لا يختار إلا من يرضيه ولا يتعدى كونه بوقا للأفكار الاستعمارية ... وشجع على الدروشة والطرقية وترسيخ مفهوم أن الدين مجرد شعارات وطقوس لا علاقة لها بالسياسة والحياة العامة»⁽²³⁾.

وعموماً يمكننا القول: إنّ الاستعمار قد حارب اللغة العربية والدين الإسلامي لمحاربة شديدة لاعتقاده بأنّ تمسك الجزائريين بهما هو سبب زواله العاجل أم الآجل. ولكن الجزائريين لم يستسلموا فكانت ردة فعلهم قوية تمثلت في ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بفكرها الإصلاحي المستنير الذي قوّض السياسة الاستعمارية وأفشلها، وقد تصدى لتلك المهمة مختلف أعضائها من مؤرخين ومدرسين وشعراء وكتاباً، وهذا ما سنتحدث عنه عند أحد الشعراء وهو أحمد سحنون.

3- الفكر الإصلاحي في شعر أحمد سحنون وإسهاماته في ترسيخ الثقافة الوطنية

تراوحت القصائد أو التجارب الشعرية⁽²⁴⁾ لأحمد سحنون بين القصائد الوجدانية الذاتية التي احتلت حيزاً مكانياً لا بأس به في شعره، وتجسدت في قصائد الطبيعة والخواطر والتأملات وغيرها، وبين القصائد العامة أو الجمعية التي تتناول القضايا العامة التي لها علاقة بقضايا الأمة سواء في الجزائر أم خارجها.

وما يهمنا نحن هو القصائد ذات الفكر الإصلاحية التي يسعى الشاعر من خلالها إلى الحفاظ على مقومات الثقافة الوطنية الجزائرية سواء قبل الاستقلال أم بعده.

وقد تجسد ذلك الفكر الإصلاحية -من خلال شعره- في إبداء الرأي والاعتقاد القائم على إزالة الفساد والانحراف الواقع والسائد تجاه تلك المقومات. ويمكن من خلال الاطلاع على شعره أن نحدد إجمالاً العناصر التي مسها فكره الإصلاحية، وهي:

- 1- الدّفاع عن اللغة العربية والدين الإسلامي،
- 2- الاعتزاز بالشخصيات الإصلاحية الجزائرية،
- 3- الأخلاق المستمدة من التعاليم الإسلامية، القائم بتحقيقها على الوعظ والإرشاد،
- 4- استحضار التاريخ الذي يشير إلى مكونات الهوية الجزائرية.

فهذه - في تقديرنا - هي العناصر التي أبدى فيها الشاعر فكره الإصلاحية الذي هو امتداد لفكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهو على النحو الذي سيتضح لاحقاً.

• الدّفاع عن اللغة العربية والدين الإسلامي:

ارتأينا الجمع بين اللغة العربية والدين الإسلامي لأن الشاعر أحمد سحنون كان في الغالب الأعم يجمع بينهما، وقد كان رأيه الإصلاحية في أساسه وجملته، قائماً على الدفاع عنهما وإبراز مكانتهما وتحبيبهما للنفوس، والرد على ما كان يروج ضدهما، ويتخذ من قرارات، كان ذلك من الاستدمار الفرنسي أو من بعض الطرقية عن جهل أو عن قصد. فالشاعر يربط اللغة العربية بالقرآن الذي له مكانة عالية في نفوس الجزائريين، ويدعو إلى عدم خذلانها، بل نصرتها؛ إذ يقول في "نشيد جمعية العلماء"⁽²⁵⁾:

لغة القرآن تدعوكم فلا تخذلوها

فمن الأخلاق إذا دعاك شخص محتاج إلى مساعدة أجبته، فما بالك إن كان الأمر متعلقاً باللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم.

ويواصل إبراز مزاياها وخصائصها، ويرغب فيها ويربطها بالسؤدد والفخر والسادة الأخيار، وهي بذلك تستحق التمسك والدفاع عنها، والاعتزاز بها، وهذا ما يظهر في عديد الأبيات، التي يصرح فيها قائلاً:

لنا لغة الضاد خيرُ اللغات ودين هدى النَّاس للصالحات
وسقّر حوى الحكم بالغات وهبّوا سراعًا إلى المكرمات
فتاريخكم حافل بِالْعَظَمِ⁽²⁶⁾

كما يصرح في موضع آخر من شعره مخاطبًا العربية بقوله:
يا لغة السؤدد والفخار! ويا لسان السادة الأخيار
ويا سجّلا خالد الآثار! على مدى الدهور والأعصار
إنا سنبقى حارسي الدّمار من حدثان الليل والنهار
نحميك بالأرواح والأعمار من السقوط ومن العثار
ونقتدي بالصفوة والأحرار من المهاجرين والأنصار
ونعتدي من جندك الأبرار فتصبحين لغة "المليار"
لا لغة الصفر على اليسار⁽²⁷⁾

ويربط الشاعر - كما هو الأمر في الغالب - بين اللغة العربية والدين الإسلامي ويجعلهما أساس بناء شخصية الجزائرية، ولا يقصد الشاعر اللغة العربية العامية، التي دخلتها الألفاظ الفرنسية والشعبية التي لا شك أن الاستعمار سيشتجعها لمحاربة اللغة العربية الفصحى إنما يقصد اللغة العربية اللغة الفصحى، وهذا ما نجده في بعض الأبيات التي يقول فيها:

هيا نجدد بالمعارف من علانا كل دأثر!
ماضٍ لنا متألق الأضواء مثل النجم باهر
لنعيد بالفصحى وبالإسلام شخصية الجزائر
فالدّين والفصحى هما عزّ الأوائل والأواخر
بهما تأخينا وقامت! بيننا أقوى الأواصر
وهما جناحانا وهل بسوى الجناح يطير طائر
وهما لنا النهج الذي من حاد عنه فهو خاسر⁽²⁸⁾

فالفصحى والدين الإسلامي هما النهج الذي يجب أن ينهج في الجزائر، ومن حاد عنها فقد خسر وخاب.

كما يتحدث عن فضل اللغة العربية على العرب، فيها شادوا مجداً ساد به الأدب
فلذلك لا عجب في الذود عنها، والاعتزاز بالانتساب إليها، فهي لغة الكتاب أو القرآن
وهي تستحق أن يعاد ماضيها المجيد في الجزائر، وفي غير الجزائر، وهذا ما جاء في قوله:

لغتي بها شاد العرب
مجدا به ساد الأدب
إن ددت عنها لا عجب
فلغيرها لا أنتسب
لغتي هي الكنز اللباب
لغتي هي السحر العجائب
مذ أصبحت لغة الكتاب
شباب الزمان ولم تشب
لغتي هواها لي نشيداً!
حبي لها أبداً جديد
سأعيد ماضيها المجيد
غضا كشمس لم تغب⁽²⁹⁾.

والواقع أنّ حديث أحمد عن اللغة العربية الفصحى شائع منتشر في شعره، وإنما نكتفي
نحن هنا بما ذكرنا على سبيل التمثيل لا الحصر، والخلاصة في حديثه عن اللغة العربية هو
أنّه اعترى بها، وذكر محاسنها وأفضالها، وأعاد لها مكانتها وسمعتها، التي اهتزت في الأذهان
والعقول، فهذا الشاعر الجزائري عمر بن قدور (1889م-1931م) أحد رواد الإصلاح في
الجزائر يذكر واقع اللغة والأدب العربي قبيل ظهور الفكر الإصلاحي في الجزائر بقوله:
«...وهكذا لا شغل لتلك الفئة إلاّ حمد رجال أروبا وتمجيد نثرهم وشعرهم واختراعاتهم
ومن المحال أن يخطر في بال أحد ذكر علامة مسلم أو شعر شاعر عربي مفلق»⁽³⁰⁾.

فكانت آراء أحمد سحنون تجاه العربية آراء إصلاحية جاءت لتصحيح النظرة الخاطئة
لبعض أبناء الجزائر.

وكما قلنا ربط الشاعر بين الإسلام والعربية، وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق غير أنه أحيانا يتحدث عن الدين الإسلامي منفصلا، وهذا ما نبرزه لتكتمل الصورة تجاه هذين العنصرين المهمين في بناء الشخصية الجزائرية وثقافتها، في وجه الغزو والاستلاب الاستعماري. فهو يدعو الى نشر لواء الإسلام الصحيح، ويرغب فيه بذكر أفضاله ومزاياه، ولا يقتصر الأمر على ما قبل، بل يمتد الى ما بعده، وهذا الذي نجده في بعض أبيات قصيدة "الجلس الإسلامي الأعلى"⁽³¹⁾:

هَلِّمُوا لِدِينِ اللَّهِ نَنْشُرْ لَوَاءَهُ	وَنُحْزَمُ بِهِ الْفَوْضَى وَنُدْفَعُ بِهِ الْجَلَى
فَإِنَّا بِدِينِ اللَّهِ كُنَّا أَعَزَّة!	فَلَوْ لَمْ نَعْقِ الدِّينَ لَمْ نَعْرِفِ الدَّلَا!
وَكُنَّا مَنَارَ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ وَالْحَجَى	فَلَوْ لَمْ نَقْرُطْ فِيهِ لَمْ نَعْرِفِ الْجَهْلَا!
فَعُودُوا إِلَيْهِ إِنْ أَرَدْتُمْ هُدَى	فَمَنْ حَادَ عَنْهُ "وَهُوَ نَجْجُ الْهُدَى" ضَلَا

كما ينتقد الشاعر عدم اتباع النظام الإسلامي في الجزائر بعد الاستقلال، ويؤاخذ على اتباع النظام الاشتراكي الروسي، وهو بهذا يتقاطع مع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي حينما قال - عندما اختار نظام الحكم الاشتراكية - "أنّ النظام اشترى كية"⁽³²⁾، وعن تلك المعارضة للخيار الاشتراكي في الحكم الجزائري يصرح:

لَسْنَا أُمِيرَ كَانَا وَلَا نَنْتَمِي	لِلرُّوسِ فِي سَرٍّ وَلَا جَهْرٍ
لَكُنَّا مِنْ أُمَّةٍ حُرَّة!	قَدْ أَنْجَبَتْ كُلَّ فِتَى حُرٍ
جئنا إلى الدنيا بدين الهدى	مثل شعلال في الدجى يسري
فمن يرم منا الهدى نعطه	هدى بلا منّ ولا أجر!
ومن يرم كفرا فنحن الأولى	جئنا لكي نقضي على الكفر ⁽³³⁾

كما يرى الشاعر أن خلاص العالم إنما يكون بالإسلام لا بغيره، لذلك يدعو إلى نشر مبادئه وتعاليمه لا في الجزائر فحسب، بل في مختلف أقطار العالم، وما قاله في هذا الصدد الأبيات الآتية:

يا ابن الغزاة الفاتحين ونسل من	رفعوا منار العدل في الأمصار
الكون في فوضى تفاقم شرّها	أنقذه فهو على شفير هار!
قد ضلّ مسلكه وتاه دليله	وبه استبدت نقمة الاقدار!

أنقذه بالإسلام فهو شفاؤه
طهره بالتوحيد من أوضاره
وأقمه بالأخلاق فهي سنده
وأرفع لواء الضاد وأهتف باسمها
إن الظلام يزاح بالأنوار!
الشرك مصدر هذه الأوضار
سوء الخلال أصابه بعثار!
وانشر هدى الإسلام في الأقطار⁽³⁴⁾

ويخاطب الشاعر إخوان الكفاح مبرراً لهم أنّ النجاح إنما يتم بالإسلام، والمراد يتحقق بالتمسك به، والابتعاد عنه إنما هو الشقاء، إذ يقول:

يا رفاق الكفاح إن بأيدينا
وبدين الإسلام نبليح ما نأمل
والذي لم يفز بحظ من
زمام النجاح، إن نتوحد!
من كل ما يرام ويقصد
الإسلام فليرض بالشقاء المؤبد⁽³⁵⁾

إنّ الشاعر في حديث عن الاسلام في - هذه الأبيات وغيرها - إنما يسعى إلى تصحيح النظرة الخاطئة تجاه الإسلام وإصلاحها كي يتمسك به أبناء الجزائر ويقفوا أمام الاستعمار الفرنسي، فهو المحرك والدافع لمقاومته وطرده من الجزائر والوقوف في وجهه، وهو بهذا إنما يشبه الشاعر العراقي معروف الرصافي في رده على ادعاءات المغرضين ضد الإسلام من جهة، وتبيين حقيقة الإسلام للمسلمين ولغيرهم، وهذا في قصيدته⁽³⁶⁾ التي نذكر بعضاً من أبياتها:

يقولون في الإسلام ظلم بأنه
فإن كان ذا حق فكيف تقدّمت
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله
هل العلم في الإسلام إلا فريضة
لقد أيقظ الإسلام للمجد والاعلا
يصدّ ذويه عن طريق التقدم
أوائله في عهدا المتقدم
فماذا على الإسلام من جهل مسلم
وهل أمة سادت بغير التعلّم
بصائر أقوام عن المجد تُؤم

وهكذا -إذن- فالإصلاح هو الدفاع عن الإسلام ضدّ كلّ من يحاول تشويه صورته وإبراز سماحته وعظمته وفضله على البشرية.

• الاعتراز بالشخصيات الإصلاحية الجزائرية:

لأجل نشر الفكر الإصلاحي الذي يسعى الى الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية، وبالتالي الحفاظ على الثقافة الجزائرية الأصيلة، يسخر أحمد سحنون كتاباته للاعتراز بالشخصيات الإصلاحية الجزائرية والتعريف بهم وذكر مآثرهم في الإصلاح والدعوة إلى الاقتداء بهم، والأخذ عنهم، وقد تعددت هذه الشخصيات، وهي:

– عبد الحميد بن باديس (1889م-1940م):

فإن الفخر بابن باديس إنما هو تثبيت لمقومات الشخصية الجزائرية التي كان يدعو إليها، والحديث عنه إنما لإبقاء لأعماله حيّة في النفوس الجزائرية، ومّا جاء في قصيدة "قسنطينة"⁽³⁷⁾ لأحمد سحنون في أستاذه ابن باديس قوله:

وكيف بنى صرح المكارم عاليا	وهب لتشييد المكارم يدعو!
وجهاز جيشا للجهاد مسلحا	بعلم وللتحرير قاد عاش يحدوك!
قضى عمره للمكرمات مشيدا	ومات وتشيد العلاء من مآتيك
وتمم ما قد خط من أسس الهدى	بنوك فهم من بعده خير بانيك

– الشيخ مبارك الميلي (1889م-1945م):

يعدّ الشيخ مبارك الميلي أحد الشخصيات التاريخية والإصلاحية الجزائرية التي كان لها الأثر الواضح في محاربة الانحرافات الطرقية، وكان ذلك في كتابه ذائع الصوت "رسالة الشرك ومظاهره"⁽³⁸⁾، ولما توفي رحمه الله، نظم الشاعر أحمد سحنون قصيدة "أعظم بما سيرة"⁽³⁹⁾ إحياء لذكرى وفاته، ومّا جاء فيها:

حررت من سوء اعتقاد بالذي	حررته في الشرك من تبين
وجلوت تاريخ "الجزائر" ⁽⁴⁰⁾ بعدما	عفى معالمه غبار سنين
أحكمت من لغة البيان أصولها	وجمال أسلوب أغرّ مبين!
وقرنت بالأخلاق ما أوتيته	من جم آداب ونضج فنون
وطبعت ذلك كله بتواضع!	وصحيح ود لا يشاب ودين!
أعظم بسيرتك التي لو تحتذي	لم يبق شعبك في قيود سجين

لقد أشاد أحمد سحنون بجهود مبارك المليلي في تصحيح عقائد الشعب من الشرك ومن سوء الاعتقاد، وبجهوده كذلك في إحياء تاريخ الجزائر الذي طواه النسيان، ليخلص من جهوده الإصلاحية في ما يخص العقائد والتاريخ، إلى أنّ سيرة مبارك المليلي لو احتذيت فإن الشعب سيتحرر من قيود الضلال والاستعمار.

وفي قصيدة "الأستاذ مبارك المليلي"⁽⁴¹⁾، يدافع أحمد سحنون عن مبارك المليلي، ويؤيده ضد خصومه الطرقيين ويشيد بجهوده الإصلاحية، في محاربة الشرك وضلال بعض الطرقيين إذ يقول:

وما لك ذنب غير أنك جنتهم	بدعوة إصلاح فكنت لهم خصما
تصدّيت صوب الشرك تمحو رسومه	وتثبت للتوحيد أبنية شما
فأرشدت مخلوقا وأرضيت خالقا	ونافحت عن دين أرادوا له هدمًا

والواقع أنّ "رسالة الشرك ومظاهره" قد حظيت باهتمام الشاعر أحمد سحنون نظرًا لأهميتها في إصلاح العقائد التي يتبناها هو نفسه، فنظم قصيدة تقريظ له، وسمها ب: تقريظ لكتاب "رسالة الشرك"⁽⁴²⁾، وقد أثنى فيها كثيرًا على ذلك الكتاب مبرزًا أهميته وطريقته المثلى في الإصلاح، وهو يمثل ما فعل إنما يتبنى الإصلاح يمثل ما فعله مبارك المليلي، وفي الإشادة وتعداد المحاسن تبين لذلك الإصلاح، ودعوة إليه، ومما جاء في أبيات تلك القصيدة قوله:

كم حوت تلكم الرسالة من	دقة بحث سما ومن تجديد!
قد خلت من مذاهب أحدث	للناس في الدين بدعة التقليد
فهي ليست سوى حديث صحيح	أو نصوص من الكتاب المجيد
دبجتها يراعاة لم تكن تعتاد	غير الإبداع والتجديد

.....

أنت أبصرت في العقائد داء	فتكفلت بالعلاج المفيد!
سفرك اليوم بلسم لجراحات	بدت في عقيدة التوحيد

إن ما ورد في هذه الأبيات إنما هو جوهر الإصلاح الذي تبنته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مجال العقائد على الأقل، فأتجاهها «كانت غايته تخلص الدين من شوائب

الطرقية والصوفية المنحرفة، وتعليم العربية، والمحافظة على الشخصية العربية للجزائر. وقد لعب هذا الاتجاه دوراً كبيراً في بثث الثقة في نفوس الجزائريين وتعميق وعيهم الشيء الذي كان له أثره الواضح في اندلاع ثورة نوفمبر 1954م»⁽⁴³⁾.

ومن أولئك العلماء كذلك الذين نهجوا نهج مبارك الميلي، نذكر الطيب العقبي ف: «قد تجلّى ميله إلى الفكر الإصلاحى، في مواقفه الحادة ضدّ الطرقية وكلّ ما كان يُنشَرُ ويذاع من خرافات وبدعٍ، لا تتناسب مع صحيح العقيدة وصريح الشرف»⁽⁴⁴⁾.

– محمد البشير الإبراهيمي (1889م-1965م):

رثى أحمد سحنون محمد البشير الإبراهيمي في الذكرى الأولى لوفاته، وأثنى فيها على جهوده في الإصلاح ومحاربة الجهل ومما جاء فيها:

إنه أحيا بلادا لقيت! حتفها جهلا وضعفا وشتاتا!
وأما الجهل والدّجال بما علّم الشعب غُلّامًا وفتاتًا⁽⁴⁵⁾

فكأنما يدعو الشاعر بإصلاح الحاضر بما قدمه السابقون من الشخصيات الإصلاحية الجزائرية، وهذا الصنيع أصلا هو فكر إصلاحي.

• الأخلاق المستمدة من التعاليم الإسلامية، القائم تحقيقها على الوعظ والإرشاد:

كان الشاعر يعتقد أنّ إصلاح الواقع الجزائري قائم -إضافة إلى ما سبق ذكره - على تشخيص الواقع وإصلاحه عن طريق الدعوة الى الاخلاق الإسلامية الفاضلة، التي كانت دعوته إليها أمرا شائعا وظاهرا في شعره، والملاحظ كذلك أنّ بعضا من نصائحه وإرشاداته إنما فيها إشارة إلى اللغة العربية والإسلام، مما لا نتحدث عنه هنا تفاديا للتكرار.

وقد خصّ الشاعر مختلف فئات المجتمع بدعوته إلى الأخلاق، فكان المعلم والتلميذ والكشاف وعامة الناس، فهي هو يخاطب التلاميذ في قصيدة "التلميذ"⁽⁴⁶⁾ قائلا:

وامثل أمر مرّيبك وكن! قبسا من روحه شهم الفؤاد
اجعل العلم دليلا وهدى إنما الجهل دجى والعلم هاد!
واقرا القرآن واعرف هديه إنه نهج فلاح وسداد!
"خالق الناس بخلق حسن" فجمال الخلق عنوان الرشاد!

كما ينادي المعلم موجها إليه مجموعة من الإرشادات، في قصيدة "المعلم" ⁽⁴⁷⁾، الذي نذكر بعضًا من أبياتها:

يا مربي النشء يا باني النهى
قد إلى العلياء أبناء الحمى
يا محل الحب من كل فؤاد!
وإلى تحريرهم كن خير حاد

...

هاته نشئا قويا باسلا
حطه بالإسلام من كل أذى
واهدده بالعلم فالعلم سنى!
وإن دجا خطب يكن أول فاد!
واحمه بالخلق من كل فساد!
ومن القران زوده بـزاد!

ولا ينسى الشاعرُ الكشّافَ لما له من دور ومكانة وأهميته في بناء المجتمع وإصلاحه فينظم قصيدة يخاطبه فيها قائلاً:

كن للبلاد دليلا
كن للجزائر عينا
كن في الجهاد طليعة
كن للبلاد دليلا
كن للجزائر عينا
صل حبل كل إحاء
ترى وأذا سميعه!
واقطع حبال القطيعه ⁽⁴⁸⁾

والذي نخلص إليه أن الشاعر وفي سعيه للإصلاح، قد عمد إلى توجيه نصائح وإرشادات لبعض فئات المجتمع، تُساعدهم هم أيضاً في نشر الفكر الإصلاحى، ولا يخفى على العيان دور المعلم والتلميذ والكشاف في مجال الأخلاق الفاضلة.

• استحضار التاريخ الذي يشير إلى مكونات الهوية الجزائرية:

في سياق المحافظة على الهوية الثقافية للشخصية الوطنية الجزائرية عمد الشاعر إلى الإشارة إلى المكون العربي والأمازيغي للشعب الجزائري دون إقصاء لأحدهما، يقول في نشيد "المليون ونصف شهيد" ⁽⁴⁹⁾:

إننا شعب البطولات الألى
نسل مازيغ ونسل يعرب
قهزنا كل باغ معتد!
وسليل كل هاد مهتد

ولا ينكر الشاعر الحضور الأمازيغي، كما يحاول بعضهم أن يشير إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ينتمي إليها الشاعر، إذ يثبته في "نشيد جمعية العلماء"⁽⁵⁰⁾ وما جاء في هذا النشيد قوله:

يا بني شعب الجزائر الأباة للمعالي
أنتم نسل "الأمازيغ" الكماة في النزال

ويوضح الشاعر أنّ الأمازيغ والعرب في الجزائر إخوة ورفقاء في الجهاد، قديماً وحديثاً ودائماً فهو يستحضر التاريخ، ويجمع بين موسى بن نصير العربي، وطارق بن زياد الأمازيغي، نجد ذلك في قصيدته "يا أخي"⁽⁵¹⁾، إذ يصرح فيها:

يا أخي يا ابن بلادي يا رفيقي في الجهاد!
يا سليل "ابن نصير" وحفيد "ابن زياد"
يا عتادا للعلا والمجد يا خير عتاد!

إجمالاً، إنّ الفكر الإصلاحية متأصل في فكر الشيخ أحمد سحنون، وكل ذلك للحفاظ على الهوية الثقافية الجزائرية من الانصهار والذوبان والطمس، وذلك بما ذكرناه آنفاً، وما لم نذكره بحديثه عن المشاعر الإسلامية والتعريف بها، وتعظيمها وتعريف الشعب بها، مثل: شهر رمضان المعظم، وليلة القدر المباركة وغيرها؛ وذلك لتصحيح المعتقدات بما يبني شخصية وطنية جزائرية مشبعة بالثقافة الصحيحة في مختلف مجالات الحياة.

خاتمة:

أحمد سحنون شخصية جزائرية إصلاحية الفكر متعددة الجوانب؛ إذ كان معلماً وإماماً وداعية وكتاباً وشاعراً، وقد سخر شعره في بعض نواحيه لتحقيق الإصلاح في الجزائر سواء أكان ذلك قبل الاستقلال أم بعده، إذ تأسس الإصلاح عنده على: إزالة الإفساد وتصحيح الأخطاء في الاعتقاد عموماً، وقد تجلّى خصوصاً لديه في إصلاح معتقدات الجزائريين تجاه اللغة العربية التي دافع عنها أشد الدفاع، وتجاه الإسلام باعتباره الدين الحق الذي يجب اتباعه، ودعا إلى إصلاح الأخلاق، وسعى إلى توطيد مقومات الهوية الجزائرية والمحافظة على الأسس الثقافية للشخصية الوطنية الجزائرية.

وإن مثل تلك الآراء الإصلاحية قد شكلت لبنة صلبة وقوية ساهمت رفقة جهود العلماء الآخرين في الحفاظ على ملامح الثقافة الوطنية الجزائرية بدينها، ولغتها، وأخلاقها، وعقيدتها، ومكوناتها.

الهوامش والإحالات

- (1) - محمد الأخضر عبد القادر السائحي: روعي لكم - تراجم ومختارات من الشعر الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص 81.
- (2) - عيسى عمراني: المعجم الجامع للأعلام وأصحاب الأقاليم، دار جصور، الجزائر، ط 1، 2008، ص 46.
- (3) - موقع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: www.oulama.dz بتاريخ 2017.08.16، وقد أخذت منه بتاريخ 2 أفريل 2022م.
- (4) - الموقع نفسه.
- (5) - محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية 1847-1954م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 3، 2007م، ص 435.
- (6) - عيسى عمراني: المعجم الجامع للأعلام وأصحاب الأقاليم، ص 46.
- (7) - الموقع السابق لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- (8) - الموقع نفسه.
- (9) - محمد الأخضر السائحي: روعي لكم، ص 81.
- (10) - موقع جمعية العلماء السابق ذكره.
- (11) - الموقع نفسه.
- (12) - الموقع نفسه.
- (13) - محمد الأخضر السائحي: روعي لكم، ص 81.
- (14) - الموقع نفسه.
- (15) - موقع جمعية العلماء السابق ذكره.
- (16) - الموقع نفسه.
- (17) - عيسى عمراني: المعجم الجامع للأعلام وأصحاب الأقاليم، ص 46.
- (18) - سورة النحل، الآية: 125.
- (19) - موقع جمعية العلماء السابق ذكره.
- (20) - موقع جمعية العلماء السابق ذكره.

- (21) – صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 12.
- (22) – عائشة بوتريد: التعليم العربي الحر ومؤسساته في قسنطينة، دار الأقصى، الجزائر، 2015، ط 1 ص 15. ويمكن التوسع في مراجعة القوانين المحففة ضدّ التعليم العربي والإسلامي، في الصفحات من ص 16 إلى 20.
- (23) – يحيى الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا – دراسة فنية تحليلية – دار البعث، قسنطينة الجزائر، ط 1، 1987م، الجزائر، ص 18. ويمكن التوسع في هذه القضية في مختلف الدراسات التي تناولت الحالة الثقافية في الجزائر خلال الفترة المدروسة.
- (24) – استخدم هذا المصطلح (التجارب الشعرية) الدكتور ناصر لوحيشي في كتابه: أوزان الشعر العربي بين المعيار النظري والواقع الشعري، الشعر الجزائري "في معجم الباطين" أنموذجاً تطبيقياً، دار الأمير خالد – الجزائر، 2013م.
- (25) – أحمد سحنون: ديوان الشيخ أحمد سحنون، الديوان الأول منشورات الخبر، الجزائر، ط 2، 2007، ص 320.
- (26) – المصدر نفسه، ص 322.
- (27) – المصدر نفسه، ص: 134.
- (28) – المصدر نفسه، ص: 105.
- (29) – المصدر نفسه، ص: 319.
- (30) – محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، 1925-1975م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 2، 2006م، ص 17.
- (31) – أحمد سحنون: الديوان، ص 175.
- (32) – عبد الملك بومنجل: النثر الفني عند الإبراهيمي، بيت الحكمة، سطيف، الجزائر، ص 32.
- (33) – أحمد سحنون: الديوان، ص 209-210.
- (34) – المصدر نفسه، ص: 109-110.
- (35) – المصدر نفسه: الديوان، ص 127.
- (36) – معروف الرصافي، ديوان معروف الرصافي، مراجعة مصطفى الغلاييني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر 2014م، ص ص 189-190.
- (37) – أحمد سحنون: الديوان، ص 39.
- (38) – مبارك الملي: رسالة الشرك ومظاهره.
- (39) – أحمد سحنون: الديوان، ص 251-252.

- (40) – يشير إلى كتاب مبارك الميللي، تاريخ الجزائر في القلم والحديث.
- (41) – أحمد سحنون: الديوان، ص 284.
- (42) – المصدر نفسه، ص 285.
- (43) – يحيى الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص: 21.
- (44) – كمال عجالي: الفكر الإصلاحي في الجزائر – الشيخ الطيب العقبي بين الأصالة والتجديد، مطبعة مزوار – الوادي- الجزائر، 2005م، ص 29.
- (45) – أحمد سحنون: الديوان، ص 253.
- (46) – المصدر نفسه، ص 16.
- (47) – المصدر نفسه، ص 14-15.
- (48) – المصدر نفسه، ص 18.
- (49) – المصدر نفسه، ص 327.
- (50) – المصدر نفسه، ص 320.
- (51) – المصدر نفسه، ص 317.